الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

التراث وما ينفعنا منه

الحلقة الأولى

التراث وما ينفعنا منه نفعاً علمياً تطبيقياً

هذا العنوان مقتبس من مقالة وردت في الزميلة " القبس " ذكر أنه جاء على لسان الدكتور زكي نجيب محمود الذي يقرر ، كما يقول كاتب المقالة السيد ربحي محمود ، " أن ثقافة الأقدمين والمعاصرين طرائق عيش فإذا كان عند اسلافنا طريقة تفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها وكان ذلك هو الجانب الذي نحييه من التراث . وأما ما لا ينفع نفعا عمليا تطبيقيا فهو الذي نتركه غير آسفين ".

والدكتور زكي نجيب محمود ، صاحب هذه الفقرة ، لا يحتاج إلى تعريف فهو واحد من الذين شاركوا في التعليم في جامعة الكويت فضلا عن أنه صاحب مدرسة فكرية رشح لدراساته التي أجراها في الغرب الأوروبي والأميركي ولسنوات طويلة من القراءات المتأملة .

والمعروف عن الدكتور زكي نجيب محمود أنه من دعاة الفكر الغربي والمنادين بضرورة استيعابه واستيحائه وإن بدا له منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا كما قال لي شخصياً أن يتصل بالتراث العربي ويتعرف إلى ما فيه من الأصالة ومن ثم يحاول أن يضع خطته في تجديد هذا التراث . وقد أخرج كتابا في أوائل السبعينات بعنوان " تجديد الفكر العربي " .

هذا الكتاب كان بمثابة تحول جزئي في بعض ما التزم له وتابعه من مسيرته الفكرية الطويلة وهي المسيرة التي انطلقت من بدايات غربية ثم تابعت انطلاقها في ضوء القيم الغربية ومناهج الفكر الغربي حتى أنه اعتقد لفترة طويلة من حياته أن الحق كل الحق هو في هذه المناهج وأن الجمال كل الجمال هو في تلك القيم . لكن اتصاله المتأخر

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

بالتراث الذي يسميه عربيا ، وهو تراث عربي إسلامي جعله يعيد النظر فيما فرط منه أي يعيد تقييم المواقف التي اتخذها خلال حياته السابقة .

ويبدو أنه قد فعل ذلك في نوع من الخفر والاستحياء . فجعل من هذا الكتاب " تجديد الفكر العربي " شيئاً شبيهاً بالاعتذار لكنه ليس الاعتذار الكامل . لقد قال فيه بالعودة إلى التراث العربي على أن يكون ما يستحيا منه صالحاً لطرائق العيش في هذا العصر . وقد ظن أنه بهذا الشرط قد وفق بين مواقفه السابقة المشبعة بالانتماء للفكر الغربي وقيمه وبين رؤيته الجديدة النابعة من اتصاله بالتراث العربي الاسلامي.

****

والواقع أنه بهذا الشرط لم يأت بجديد, ذلك لأن إحياء التراث التاريخي للأمم لا يعني تقليد السابقين " هذا كما كان يقال من قبل".. إنه لا يعني تقليد الآباء والأجداد في كل كبيرة وصغيرة ... في الجد والهزل ... وفي النجاح والفشل ... وفي الصواب والخطأ . ولو حدث شيء من ذلك أمكننا أن نطبق على القائلين بهذا النوع من الإحياء قوله عز وجل : " واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ".

إحياء التراث يعني العودة إلى القيم الأصيلة الثابتة والمواقف التي تفجرت بها الشخصية التاريخية ، وتحققت بفضلها جملة الابداعات ... وهو لا يعني أبدا الأخذ بكل رأي ... والخضوع لكل اجتهاد وضعه رجال الأجيال السابقة.

وإحياء التراث يعني الالتزام بالعقيدة الرئيسية التي تميزت بها شخصية الأمة في التاريخ . ولما كان لأمتنا العربية التزام عقدي يعود على الأقل إلى خمسين قرنا قبل اليوم وتتابعت الدعوة اليه في غير مهادنة ولا تردد ، وبوضوح لا يخالطه أدنى غموض ، رغم النكسات الخطيرة التي تعاقبت بعد سلسلة الدعوات التي نادت بهذا الالتزام ... ولما كانت الدعوة الاسلامية باعتبارها النداء السماوي الأخير الذي تميزت منه بطابع العالمية ، هي عملية إحياء لعقيدة الوحدانية وبسط للقيم والشرائع الرئيسة التي تستوعب أبعادها من الناحية السلوكية ، فقد وجب أن تكون دعوة اليوم إلى إحياء هذا التراث على الصورة وبالمنهج الذين جاءت بهما دعوة الاسلام منذ أربعة عشر قرناً . انها تعني إحياء المفهوم الأصيل لعقيدة الوحدانية والعمل بالقواعد الأصيلة لظاهرتها التشريعية والخلقية . والظاهرة هذه هي ما يجب أن تفهم

منها كلمتا "طرائق العيش".وكما كانت طرائق العيش في كثير من جوانبها التطبيقية موضعا للتغيير والتبديل اللذين يتولاهما المجتهد برأيه فإن من الطبيعي جداً أن يكون إحياء التراث موصولا باجتهاد يبني المجتمع الجديد في ضوء الأصول الثابتة التي تتحدد بها شخصية الأمة . أي في ضوء رؤية الوحدانية التي يجهل الكثيرون من المثقفين العصريين أنها ليست مجرد عقيدة معزولة عن الحياة ، بل هي رؤية حياتية ذات امتداد تطبيقي وأبعاد سلوكية خلقية . إنها تعني فلسفة وجودية كاملة نابعة من فكر متوازن موصولة بحدس فطري سليم .

****

واذا كانت لنا مأخذ جدية على رجال حاولوا أن يطبعوا عصورنا الحديثة بطابع اعتبروه طريقاً عصرياً أو متقدماً ، فمآخذنا هذه نابعة من جهلهم أو تجاهلهم لروح أمتهم وانتمائهم غير المشروط لتراث أجنبي ، أو من تقصيرهم في دراسة التراث العربي الاسلامي على النحو الذي تتحدد به أبعاد النهضة الحضارية التي قالوا : إنها قضية العرب في هذا العصر.

فطه حسين مثلا لم يكن أول من تنكر لأكثر الشعر الجاهلي . فقد سبقه أعلام عرب مسلمون إلى هذا الموقف وكشفوا عن الزيوف في رواياتها وفي روايات رجال جاؤوا من الصحراء العربية أو جاءهم الباحثون عن التراث العربي في مواطنهم الصحراوية. لكن الذي يؤخذ على طه حسين أنه في الوقت الذي كان يشكك فيه في القيمة التاريخية للشعر الجاهلي كان حريصا على ابراز التراث الثقافي الغربي بالصورة التي توحي بانتمائه الكلي إليه. فهو الذي نادى باللجوء إلى المنهج اللاتيني ، وانطلق من مسلمات ديكارت وقرر ضرورة الأخذ بالأصول التربوية والتثقيفية القائمة في الغرب دون أن يبذل أي جهد أصيل مبدع في وضع صورة منهجية نابعة من الولاء التام لروح أمته وأصولها التاريخية . وفي كتاب " مستقبل الثقافة في مصر " الذي وضعه لطرح أصوله ما يكفي للكشف عن الخلفية الغربية لفكره والخلفية الغربية لولائه.

****

أما توفيق الحكيم فهو لا يقل عن طه حسين ، بل يزيد عليه ، في جهله أو تجاهله لروح أمته. لقد غرف في غير حساب من تراث الغرب الأدبي ولا سيما المسرحي منه. وراح يروج لهذا التراث بحيث أن كل القضايا التي طرحها في

مسرحياته كانت ولا تزال حصيلة هذا التراث بالذات . ثم لم يفعل شيئا يثبت به ويؤكد تعامله الجاد مع التراث العربي الاسلامي. وزاد في غربته عن حركة العصر أنه اختار العزلة التامة عن هموم أمته . فهو يعيش بجسده في القاهرة لكن فكره وعاطفته وهواه والقيم التي افتتن بها والجماليات التي حققها ليست من تراب القاهرة ولا هي ثمرة لشجرتها كما أنها ليست تعبيرا عن هموم شعب مصر والشعوب الأخرى للأمة العربية.

فنحن اذاً لا نجد في " فن المسرحية " بالذات ما نؤاخذ عليه توفيق الحكيم بل نؤاخذه على ولائه التام لأصول التراث الغربي. أي نؤاخذه على التقليد الذي تضيع به الشخصية الأصيلة النابعة من التجربة الحية في مجتمع غير المجتمعات الغربية.

وحتى في المسرحيات والروايات التي قدمت بعناوين مستمدة من تراث العروبة والاسلام من مثل "أهل الكهف" ، و"محمد"، يحس القارىء أن القضايا المطروحة هي ثمرة فكر نصيبه الغربي الفرنسي أكبر من نصيبه العربي الاسلامي.

ولا يرد علينا الزعم بأن أدب توفيق الحكيم بعيد في روحه ومعالجاته والقضايا التي يطرحها عن التراث العربي الاسلامي . ذلك لأن هذا البعد هو إدانة لأدبه لا تبرير له واعتذار عنه . فالمفروض في أدباء النهضة وفنانيها عندنا أن يستوحوا أمتهم وأن يعيشوا في صميم همومها وأن يكون تجديدهم منطلقاً من أصول هذه الأمة وقيمها التاريخية ، لا أن يكون أدبهم مجرد قوالب مستعارة أشبه بالقبعة التي توضع على رأس لابس الجلابية ، ولا أن يكون أدبهم استنطاقا لآلهة اليونان التي لا يعرف عنها المواطن العربي شيئاً أبدا ، ولا أن تكون مذاهب الكتابة في المسرح مجرد تقليد لمذاهب الكتابة في الغرب . فالنهضة لا تعني استيراد ما جهد الغربي في وضعه بل تعني استنبات المواقف والتراث من تراب الأرض العربية الاسلامية ومن روحها الثقافية بحيث يزيد ولاء العربي لتراثه وتتضح أمامه الابعاد الغنية الشابة لهذا التراث.

أما ما جرى ويجري في لبنان فنحن له أكثر انكارا وأشد رفضاً . فإذا كان طه حسين قد أثرى بأسلوبه السهل الممتنع واختار في بعض ما أنتجه موضوعات موصولة بالتراث العربي الاسلامي فإن أدب الكثرة الساحقة من اللبنانيين الأدباء هو أدب مستسلم دون أي قيد أو شرط للدخيل من الفكر والفن والقيم والقواعد . بل أن كثيرا من أدبائه وشعرائه ومفكريه يفاخرون زملاءهم في العالم العربي أنهم حملة التراث الغريب ولا يترددون في الزعم بأنهم طليعة التغريب الثقافي في العالم العربي . يدخل في ذلك أدب جبران خليل جبران وعمر فاخوري وأدونيس وميخائيل نعيمة وغيرهم

ناهيك عن المعاهد الثانوية والجامعية العليا الأميركية والفرنسية والانجليزية التي لعبت وتلعب دوراً قياديا في تغريب الثقافة اللبنانية وتجاهل التراث العربي الإسلامي.

****

واذا كنا قد قصرنا الإشارة إلى رجال في مصر ولبنان فنحن لا نقصد بذلك تبرئة الجلة من المثقفين في بقية الاقطار العربية الإسلامية بل فعلنا ذلك لأن القاهرة وبيروت أنبتتا بحكم دورهما التثقيفي رؤوساً لهما في كل عاصمة عربية بل في كل مدينة من المدن ولا نبالغ إذا قلنا في كثير من القرى العربية .

ولا نشك في أن الأبواق الإعلامية التي تساند هؤلاء هي من القوة والغنى بحيث توصلت إلى عزل الأصوات الداعية إلى إحياء أدب عربي وفكر عربي وقيم عربية موصولة بتراث هذه الأمة . فبدت هذه الأصوات وكأنها لحن شاذ يفسد على الجوقة ما تقدمه من عطاء فني.

****

في ضوء هذه المعطيات أصبحت القيادة الثقافية في العالم العربي معزولة عمليا عن الأصول العربية وبلغ من تجاهل هذه القيادة لقدرات العربية لغة وفكراً وقيما أنها جعلت من هذه العربية وكل ما يسمى تراثاً إسلاميا شيئاً على هامش الاهتمامات الثقافية الجادة . ولماذا ترهق هذه القيادة نفسها وتحاول رفع القواعد من النهضة على أسس تراثية وهي التي وجدت في الاختيار السهل اليسير مندوحة عن الاختيار الشاق المتعب ؟ ولذلك اختارت أن تكون لغة العلوم أجنبية ... واحتفلت لحملة الفكر الغربي والفن الغربي والقيم الغربية باعتبار أن هذه كلها طعام جاهز وأنها لا تشعر بوخز الضمير وهي تمارس مثل هذا الاحتفال وتفرض مثل ذلك العزل على لغة العرب في ميدان تعليم العلوم الحديثة.

****

في ضوء ما سبق نعود كرة أخرى إلى الدكتور زكي نجيب محمود لنتحدث إليه بحديث رأيه في إحياء التراث العربي الاسلامي. ففي رأيه هذا الذي أوردناه في مقدمة هذه المقالة ما يشعر القارىء والسامع بأن هذا التراث لا يصلح كله للنهضة المطلوبة. وهذه ثغرة مفتوحة لإدخال ما يأتينا من الثقافة الغربية بدعوى أنها جزء من محاولة الترميم والإحياء أو لوضع قطار الثقافة الغربية فوق سكة عربية .

فإذا أدركنا أن التراث هو موقف وانتماء لأصول أساسية رافقت شخصية الأمة التاريخية واستقلت بتكوين أصالتها ، وأن هذا التراث لا يدخل فيه الثمرات الاجتهادية التي تتمثل فيها التجارب اليومية والاجتهادات الخاصة بوقائع وأحداث تتغير بتغير الظروف والمناسبات ، وأن حاجة التراث اليوم إلى الفكر المجتهد كحاجته في الماضي إليه ، لم يعد في هذا التراث ما يصلح لخدمة الحياة اليوم وما لا يصلح ، بل يخرج إلى دنيانا كاملا متمتعا بالتأكيد التام صالحا لرفع القواعد من نهضته بالاجتهاد المبدع الذي يتستوحي أصوله وتعاليمه الثابتة أو لنقل مواقفه وقيمه الأساسية.

****

وإحياء التراث العربي الإسلامي يعني إحياء الثقافة القرآنية لا باعتبارها نصوصاً اتخذت مع الأسف طابع الطقوس عند الكثيرين بل باعتبارها طريقة عيش يتمتع أصحابها بالحرية المسؤولة وبحق الإبداع في حدود قيمها الأساسية . إن قيمة الثقافة الحية ليست في ذاتها بل هي في قدرتها على جعل تراث الأمة شيئاً في صميم حركتها التاريخية ,أن تكون هذه الثقافة ثمرة " التجربة والخطأ " وهي تستوحي القيم والأصول الأساسية لتراث الأمة .

****

نعود ونكرر القول : أنه ليس في تراث أمتنا ما يصلح وما لا يصلح . والقائلون بوجود ما يصلح وما لا يصلح هم الذين يخلطون بين صيغ التطور وأشكالها المتغيرة بتغير الكشوف وتطورها وبين القيم الثابتة والأصول التي لا تقبل تطويراً ولا تغييرا . فالأمة التي تجرؤ على التنكر لأصولها وقيمها الثابتة تفقد مكانتها في التاريخ وتخسر دورها القيادي .